# محاولة لفَهْم ما يحدث الآن وهنا

□ هادي دانيال

قبل ثلاثة عقودٍ ونيِّف شَهَرَت الإمبرياليّةُ أسلحتَها الصهيو ـ أمريكيّة / الاستخباريّة والإعلاميّة والعسكريّة لتجرّدَ الشعوبَ (العالمثالثيّة بخاصّةٍ) من رافعتها النضاليّة المتمثّلة تحديدًا في الإيديولوجيا الماركسيّة والقوميّة اليساريّة كي تتركَ فراغًا حاولت الإيديولوجيا «البديلة» الليبراليّة المتوحّشة والأصوليّة الدينيّة التي لا تقلُّ توحُّشًا (اليهوديّة الصهيونيّة، والمسيحيون المحافظون الجدد، والإسلام السياسيّ) أن تملأه. وانتشرتْ في أوساط النُّخَبِ الفكريّة والثقافيّة معزوفةُ «انهيار الإيديولوجيا» المشبوهة عشيّةَ انهيار الاتحاد السّوفياتيّ وغداته.

وفي عالمنا العربيّ أفْضَت المعطياتُ الجديدة إلى طلاق انتهازيّ بائن بين الفكر القوميّ وصبغته اليساريّة ليعلن زواجًا براغماتيًا منافقًا مع الإسلام السياسيّ بذريعة الانتباه فجأةً (وبعد نصف قرن تقريبًا!) إلى مكوّنات الهويّة القوميّة. ولم يكن اليسارُ أقلَّ اندفاعًا في هذا الاتجاه، إذ توزَّعَتْ رموزُه بين النكوص إلى الليبراليّة بمراجعها الغربية الأوروبيّة والأمريكيّة وبين الارتداد إلى التموقُع دينيًا وطائفيًا وعرقيًا. وقد شملَ ذلك النُّخَبَ والقوى في «المعارضات»؛ كما شمل الأنظمة الحاكمة بشعاراتٍ قوميّةٍ (وكالحملة الإيمانيّة التي تبنّاها نظامُ صدّام حسين قبل انهياره).

وفي هذا المناخ الدوليّ والعربيّ الذي اصطخب بشعارات العولمة الاقتصاديّة والليبراليّة الثقافيّة وتصدير الديمقراطيّة السياسيّ، تحكَّمتْ دوائرُ الاستخبارات الغَرْبيّة (ولاسيّما الأمريكيّة) بمصائر الشعوب والدول في أوروبا الشرقيّة ودول العالم الثالث لترفع عملاءها الأبرزَ والانشطَ إلى سدّة الحكم من بولونيا إلى تونس وغيرهما. وفي الوقت نفسه تفشَّتْ تيّاراتُ الإسلام السياسيّ، المراوغةُ منها والمتطرّفة، لتكون ذرائعَ تدخُّل أجنبيّ في دُوَلٍ مُسْتَهْدفة ويُراد إسقاطُها في الشباك الصهيو ـ أمريكيّة بغيةَ تقسيمها إلى كيانات هزيلة على أسس دينيّة وعرْقيّة، كما حصلَ ويحصل في العراق والسودان ولبنان واليمن وفلسطين ومصر وغيرها.

وهكذا وَجَدَ الشعبُ التونسيّ نفسَه أسيرَ نظام الرئيس السابق زين العابدين بن عليّ، المرتبط بالمخابرات الأمريكية منذ سنة ١٩٦٨، والذي أعاد صياغةَ الحزب الحاكم وبقيّة أجهزة الدولة البوليسيّة وقوى المجتمع التي أفرغها من أيّ محتوى نضاليّ مطلبيّ أو سياسيّ ليَرْبطها جميعًا بعجلة مصالح الغرب وسياساتِه الاقتصاديّة والأمنيّة. فأفضت إجراءاتُ خصخصة القطاع العام إلى خسائر اجتماعيّة كارثيّة، ضاعفتْها سياسةُ النَّهْب وتسليط جَشَع العائلة الحاكمة، ما دفَع البلادَ والعبادَ إلى حافة الانهيار الشامل. وما كان بمقدور الرئيس المخلوع وحاشيته مواصلةُ نخر الدولة وتخريب المجتمع وإفقار المواطنين وقهرهم إلاّ بتوظيف أجهزة القمع ونشر ثقافة الخوف والابتزاز وبثّ سموم الرشوة والفساد والإفساد لتوهينَ مفاصلَ الشعب

وتجلّى القهرُ الاقتصاديّ بالحؤول دونَ نموّ الرأسماليّة الوطنيّة ورَهْنِ بقائها نسبيًا بمدى ارتباطها بالمافيا الكومبرادوريّة متمثّلة في عائلة «الطرابلسي» وغيرها من حاشية النظام وتشعّباتها الأخطبوطيّة.

وإعلاميًا، تحوّلت المنابرُ كافةً إلى أبواقٍ تضليليّة اضطَرّتِ الشعبَ إلى الإصغاء إلى قنوات فضائيّة تبثّ من قواعد صهيو ـ أمريكيّة في الخليج بخاصّة، تروِّج للإسلام السياسيّ والتطبيع مع الكيان الصهيوني في آنٍ معًا (١٩) ساعيةً إلى أن يُضيِّعَ الشعبُ هويّتَه القوميّةَ والوطنيّة.

وتزامن ذلك مع ضرب استقلاليّة القضاء، ومحاصرةِ القضاة والمحامين الشرفاء، ومطاردةِ الناشطين الجادّين في مجال حقوق الإنسان، وتدجين المثقفين، وإشاعةِ منظّمات صُوريّةٍ تحت عنوان «المجتمع المدني»، وتغليف ذلك بخطابٍ ديماغوجيّ حول «دولة القانون والمؤسسات والديمقراطية وحوار الحضارات والتسامح والوسطيّة...» إلخ.

بموازاة ذلك كلّه، كانت رحمُ الشعب تحتضن جنينَ الغضب القادم، أعني مئاتِ الآلاف من الشباب الجامعيّ العاطلِ عن العمل، والواعي بمعاناته وانسداد آفاقه، والرافضِ لتوظيف بلاده في سياسات صهيو ـ أمريكيّة تجلّى بعضُها في التطبيع السياسيّ والاقتصاديّ والثقافيّ والإعلاميّ والأكاديميّ المعلن وغير المُعْلَن مع إسرائيل.

وبعد أن يئس الشبابُ، الذي ذاق شتّى أنواع القمع والتهميش خلال دراسته الجامعيّة وإثر تخرُّجه، من الحلول التي طَرَحَها على نَفْسه مثل «الحرْقان» بأجساده المفعمة حيويةً إلى شواطئ أوروبا، بات ظهرُه إلى الحائط، فاضطرّ إلى حَرْق الجسد العاجز المكبَّل المُهان احتجاجًا تراجيديًا معبِّرًا عن نفاد صَبْر هذا الشعب الحليم ورفضِه التكيُّفَ مع أشكال الخصْي والإذلال

هكذا وضَعَتْ أشكالُ الضغط القاهر تونسَ على حافّةِ بركانٍ كامنٍ كانت عَرَبةُ خضار الشابّ محمد بوعزيزي صاعقَه المفجِّر. فتَولد السيلُ الجارفُ من قطرةٍ أفاضت كأسَ القَهْر، واكتمل جنينُ الغضب لنشهدَ ولادتَه الطبيعيّة في شوارع البلاد، بعيدًا عن أشكال الولادات القيصريّة الشائهة التي شهدتْها دولٌ عديدةٌ بتدخّلات الجرّاح

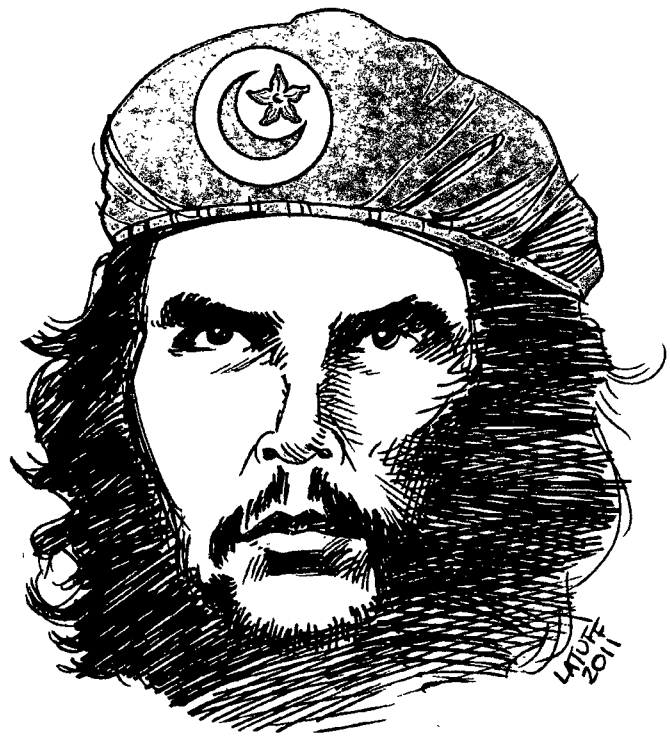


ملصق من وحي ثورة تونس غيفارا التونسي (كارلوس لطّوف)

الأمريكيّ وأدواته الصدئة. وانبثق نورُ الثورة من حريق الأجساد المقهورة، ليضيء تونسَ بأسرها.

وبالتالي وجَدَ الشعبُ نفسَه يُعيد الاعتبارَ إلى الإيديولوجيا/منظومة قيمِه وتطلُّعاته النبيلة، بتجلّياتها المختلفة، لتعلن نفسَها من خلال مدٍّ تأطيريّ لهذه الحركة العفويّة العظيمة، تطفو عليه موقّتًا أشكالٌ حزبيّةٌ وتنظيميّةٌ شتّى، طارحةً نفسها قواربَ نجاةٍ في هذا الفيضان الشعبيّ العارم للابتعاد بالثورة عن تخوم الفوضى. إلاّ أنّ الرهان الحقيقيّ يبقى على القوى الحيّة اللصيقة بحركة الشعب العفويّة منذ كانت حالةً جنينيّةً، وعلى ما تبتدعه هذه الحركةُ في صيرورتها من أشكال تنظيميّة تعبّر عنها بصدق.

ولكنْ يجب أن لا نستخفّ بالأخطار المحْدقة بهذه الثورة التي بقَدْر ما هي مصدرُ أمَلٍ لشعوب المنطقة فإنّ أنظمةً قريبةً وبعيدةً لن تدّخر جهدًا لاحتوائها والغدر بها بغيةَ إجهاضها. والخطر الأكثر قُرْبًا يأتي مَن قوى غَربيّة، فرنسيّة وأمريكيّة تحديدًا، تحاول تجاذبَ الثورة وحرفَ مسارها الوطنيّ باستخدام قوى محلّيّة موجودةٍ داخل الدولة وداخل المشهد السياسيّ قبل ١٤ جانفي ٢٠١١، أو وافدةٍ من المنافي الغَرْبية وفي هذا السياق يتنزّل تضخيمُ دور الوثيقة التي سرّ بها مركزُ «ويكيليكس» الإلكترونيّ، بشأن الرئيس السابق زين العابدين بن عليّ، والتي أَظْهَرَتْه متمرّدًا على واشنطن ومارقًا على مَنْ أوصلوه إلى سدّة الحكم، ذلك أنّ المضخِّمين لهذا الدور يزعمون أنّ تسريب تلك الوثيقة كان مُتعَمّدًا لنشر الرعب في تلك الأنظمة التي لا تنشط كما ينبغي في خدمة المصالح الصهيو ـ أمريكيّة، انطلاقًا من أنّ مأخذ واشنطن على بن عليّ أنّه انشغَلَ عن خدمة المصالح الأمريكيّة بخدمة مصالح زوجته وعائلتها التي كانت تلقى دَعْمًا من باريس في سياق التجاذب الفرنسيّ ـ الأمريكيّ حول تونس ودول المغرب العربيّ كافّةً. ولئن كان هذا التوظيفُ المشبوهُ لبعض وثائق ويكيليكس يؤكّد اندراجها في مخطّط لخدمة الأهداف الأمريكيّة والإسرائيليّة، إلاّ أنّ تصريحات نتنياهو تبدِّد الزعم في أنّ الرئيس المخلوع تخلّى لاحقًا عن خدمة المصالح الصهيو ـ أمريكيّة. ناهيك بأنّ نصيحة واشنطن لبن عليّ عن زوجته وعائلتها تعود إلى سنوات قبل اندلاع الثورة النظيفة والبريئة من أيّ عامل خارجيّ مؤثّر بشكل مباشر أو غير مباشر. وعلى العكس من ذلك، فإنّ القوى الخارجيّة تنظر بتطيُّر إلى هذه الثورة وتحاول ـ عبثًا إنْ شاء اللّه والشعبُ ـ حَرْفَهَا عن مسارها والحؤولَ دون تحقيق أهدافها.

وبوضوح أدقّ، فإنّ خصوصيّة هذه الثورة تنبع من تراث الشعب التونسيّ النضاليّ، السياسيّ والثقافيّ والنقابيّ والشعبيّ بدءًا من ابن خلدون وصولاً إلى محمد بو عزيزي مرورًا بعبد العزيز الثعالبي والطاهر الحدّاد وأبي القاسم الشابّي ومحمد علي الحامي وغيرهم، ومن كون هذا الشعب ذا حساسيّةٍ عاليّةٍ إزاء كرامته وحريّته وإنسانيّته. ولهذا كلّه انتفض على هذا النحو عندما بدأتْ آلةُ القمع والقهر والإذلال تمسّ جذورَه الخضراءَ ونَبْضَ عروق الحياة فيه .. هذه الجذور التي يبستْ للأسف في مجتمعاتٍ عربيّةٍ عديدة.

**تونس**

**هادي دانيال**

كاتب سوري مقيم بتونس